نحن واللغة العربية

اللغة العربية من النهضة الحديثة في القرن الماضي
الى عصرنا الحاضر

— ٢ —

للأستاذ مصطفى الشهابي

قلت في الحديث السابق إن عهد الأتراك العثمانيين كان أعتم العهود التي مرّت على اللغة العربية وآدابها فقد اتخذوا اللغة التركية دون غيرها لساناً رسميًّا للدولة حتى في البلاد العربية. فكان التدريس بالتركية في مدارس الحكومة. وكانت العربية نفسها تدرّس بالتركية في تلك المدارس. وأتذكر أني قضيت سنة من عمري في المدرسة الاعدادية أي مدرسة التجهيز بدمشق فكان معلم اللسان العربي في صفنا (فصلنا) رجلاً تركيًّا لا يفرق بين المذكر والمؤنث، يدرّس العربية بكتاب تركي؛ فعند ما يريد السؤال عن تعريف الفاعل مثلاً لا يقول لنا: ما هو الفاعل؟ بل يقول: فاعل نه يه دير لر؟ وعلينا أن نجيب عن سؤاله بالتركية، حفظاً عن ظهر قلب، من كتاب تركي سقيم لتعليم اللغة العربية

وكانت التركية لغة المحاكم أيضاً: فالمرافعات والمحاكمات كلها تدوّن بهذا اللسان دون غيره. وهو لسان الجندية ولسان الحكومة في جميع دوائرها. فالعربي لا يستطيع أن يكون موظفاً ما لم يعرف هذا اللسان. أما معرفة اللسان العربي أو الجهل به فسيان.

ولم يعترف الأتراك العثمانيون بوجود قوم إسمهم العرب ولا بقومية إسمها العربية، ولا بكيان سياسي لهذا الشعب الذي كان يتألف منه نصف الدولة، بل كان يجب علينا أن نسمي أنفسنا عثمانيين ليس غير. ولم تكن هذه العثمانية ويا للأسف شيئاً يستطيع أن يُعتز به حتى العربي الذي أنكر قوميته العربية لأنه بينما كانت أوربة في عهد الدولة العثمانية تتقدم بخطى جبارة في جميع مناحي المدنية من علم وأدب وفلسفة وصناعة وزراعة وتجارة وفنون مختلفة، كانت الدولة العثمانية مثال الجهل والانحطاط والجمود حتى لقبوها بالرجل المريض.

وشاء الله ألا تنقضي تلك الأيام السود على لغتنا الشريفة فنبتت تدريساً حسناً في بعض الجوامع كالأزهر في مصر، وفي بعض المدارس الأهلية الاسلامية والنصرانية في ديار الشام. ويجب الاعتراف بأن مدارس نصارى الشام تمسكت بلغتنا ولم تهملها منذ أن تأسس معظمها في القرن الماضي الى يومنا هذا.

وإذا أنعمنا النظر في نهضتنا الأدبية الحديثة نجد أنها بدأت في مصر والشام، وامتدت منهما الى سائر الأقطار العربية. ففي مصر يعزى بدء النهضة الى حملة الفرنسيين عليها في أواخر القرن الثامن عشر للميلاد. ذلك أن نابليون جلب معه الى مصر طائفة جليلة من العلماء الفرنسيين أسسوا مراصد طبية فرنسية ومجمعاً علمياً مصرياً ومدرستين وجريدتين ودار كتب ومراصد مصورة وخيرات كيماوية ومسرحاً تمثيل. وجلبوا معهم مطبعة عربية كانت أول المطابع في مصر. ودرس هؤلاء العلماء نباتات القطر وحيواناته وجيولوجيته وآثاره ومياهه. ومنهم من عكفوا على دراسة العربية وآدابها. ومنهم من أسسوا معامل للورق والأقمشة وغيرها. ولم يألوا جهداً في اطلاع المصريين على أسس المدنية الأوربية ولا شك أن اليقظة في مصر بدأت من ذلك الزمن. ولكن هذا العهد لم يطل كما هو معروف في التاريخ وتأثيره كان صغيراً. ولهذا يعد محمد علي الكبير أب النهضة الحديثة في القطر الشقيق.

فهذا الرجل العظيم أدرك ثاقب فكره وحدة ذكائه أنه لا يمكن تأسيس دولة ثابتة الأركان إلا بالتماس أسباب المدنية الحديثة. ولهذا جعل همه نشر العلم والثقافة في الشعب على أحدث الأساليب الأوربية المعروفة، واستعان على ذلك بعلماء من الفرنسيين خاصة، ففتح لهم مدارس للعلوم الحربية، ومدرسة طبية، ومدرسة للطب البيطري، ومدرسة هندسية، ومدرسة زراعية، ومدرسة للصناعات والفنون، ومدرسة للألسن والترجمة، ولدار الكتب والمطبوعات، وأوجد أول جريدة عربية هي الوقائع المصرية وبعث الى فرنسة خاصة ١٩ تلميذاً يدرسون فيها العلوم المختلفة فعاد منهم الى مصر عدد كبير من العلماء والأساتذة، يعلمهم تولوا مناصب الدولة الكبيرة وآخرون درسوا في المدارس المصرية. وكان محمد علي حريصاً على نشر اللغة العربية وآدابها. وكانت جميع الدروس التي يلقيها الأساتذة الفرنسيون تترجم الى العربية. وطبع كثير منها في مطبعة أسست في ذلك العهد.

ولم يكن الخديوي إسماعيل دون محمد علي في نشر العلم فأسس المدارس وأرسل البعثات الدراسية الى أوربة وطبع الكتب العلمية والأدبية. وقد رعت اللغة العربية في أيامه لأنها

كانت لغة الدولة الرسمية ولغة التعليم في جميع مدارس الحكومة على اختلاف درجاتها وأغراضها . ولغة إسماعيل الصحافة فظهرت في أيامه عدة صحف أصحابها مصريون وشاميون وأشهرها جريدة الأهرام وجريدة المحروسة .

ولبثت المدارس المصرية تدرس بالعربية في عهد الاحتلال أي بعد سنة ١٨٨٢ من الميلاد إلا بعض المدارس العليا كمدرسة الطب فقد جعل التدريس فيها بالانكليزية . أما الصحافة في ذلك العهد فقد تقدمت لأن أكبر ممثلي انكلترا في مصر وهو اللورد كرومر (على ما يؤخذ عليه في السياسة) كان نصيراً لحرية الصحافة ولم تكن انتقادات الصحف تزعجه . وفي تلك الأيام صدرت جريدة المقطم سنة ١٨٨٨ ثم جريدة المؤيد . وصدرت مجلة الهلال وتلتها مجلة المقتطف من بيروت الى مصر . وأنشىء بعدئذ عدد من الجرائد والمجلات المختلفة ما برحت تتقدم بفنها وموضوعاتها حتى بلغت مقاماً جليلاً في أيامنا هذه، وحتى غزت الأقطار العربية السائرة لأنها فاقت صحف تلك الأقطار إجلالاً .

وترجع طلائع النهضة الحديثة في الشام الى ما أسسته الأرساليات الدينية من المدارس في القرن الماضي في بيروت ولبنان ، وما أسسته الجمعية الخيرية من المدارس في دمشق وأنحاء الولاية أيام الوالي الشهير مدحت باشا في أواخر القرن الثالث عشر للهجرة . ثم كثرت المدارس الأهلية ولا سيما المدارس الطائفية النصرانية ، ولكل بطريركية مدارسها في أنحاء القطر ، وكلها تعنى عناية كافية باللغة العربية . ولم يشذ عن ذلك الا مدارس الحكومة كما أشرت اليه . وكان التعليم العربية بادىء ذي بدء في الكلية الأميركية . وألف أساتذتها المشهورون هناك كتباً عربية ثمينة في بعض العلوم التي كانوا يدرسونها . ولو لم يجعلوا التعليم بعدئذ بالانكليزية لكان للجامعة الأميركية فضل جد كبير على لساننا العربي . وكان السابق على أشده في مدارس الأرساليات الدينية وهي تنتمي إلى دول مختلفة، ولها طرائق مختلفة . وقد تتلمذ فيها عدد كبير من رجالات الشام فخدم بعضهم ثقافتنا العربية خدمات لا تنكر، وضل آخرون منهم فتنكروا للفتهم ولقوميتهم . ومع هذا فقد كانت هذه المدارس أصلح لنا من مدارس الدولة التي كانت تحارب في السر لغة القرآن وليس فيها مدرسة واحدة يستطيع المرء أن يثقف فيها ثقافة عالية .

وسبق الشاميون غيرهم الى الطبع بالأحرف العربية . وظهرت الطباعة في حلب في أوائل القرن الثامن عشر . وأنشئت المطابع في لبنان وبيروت خلال ذلك القرن . ثم أنشئت المطبعة الأميركية والمطبعة اليسوعية في بيروت في القرن التاسع عشر وهما اليوم أكبر مطابع هذا القطر . اما الصحافة المستقلة فقد سبق الشاميون غيرهم فيها وأصدروا في القرن التاسع عشر

بضع جرائد ومجلات علمية وأدبية . وانتقل عدد من الكتاب الشاميين الى مصر أيام اسماعيل وبعدها ، فكان لهم تأثير كبير في نهضة الصحافة في القطر المصري.

ونتج عن هذه اليقظة تأليف جمعيات أدبية كثيرة في مصر والشام في القرن التاسع عشر كالجمعية السورية والجمعية العلمية السورية في بيروت وغايتها واحدة وهي نشر العلوم الحديثة ، وكجمعية زهرة الآداب في بيروت وهي تعنى بالخطابة والبحوث العلمية . وألفت جمعيات خيرية للتعليم الأهلي كجمعية المقاصد الخيرية في بيروت وهي ما برحت قائمة بأعمالها الخيرية التعليمية ، وكالجمعية الخيرية في دمشق وهي التي أشرت إليها ، ذهبت مذهب مدحت باشا من هذه الديار . أما في مصر فقد كانت حركة الجمعيات والمجامع العلمية أسرع وأقوى منها في الشام . فما اشتهر منها المجمع العلمي المصري أسسه نابوليون أثناء حملته وهو ما برح حيًّا له مجلة تنشر بحوثاً علمية جليلة تتعلق بمصر وبالثقافة العربية بعضها بالفرنسية وبعضها بالانكليزية والعربية ، وله نشرات في حجم الأسفار فيها بحوث وشروح عظيمة الفائدة . وفيه عدد غير قليل من العلماء المصريين .

ومنها الجمعية الجغرافية ، والجمعية الزراعية ، ومعهد الحشرات ، والجمعية الطبية ، وجمعية المعارف لنشر الكتب ، وجمعية الترجمة ، وجمعية العروة الوثقى الاسلامية ، والجمعية الخيرية الاسلامية الى كثير غيرها من النوادي الأدبية ، وجمعيات التعليم والدراسة .

ومن بدائه الأمور أن ينتبه العلماء ورجال الدولة الى المخطوطات العربية القديمة وإلى تأسيس دور كتب تُحفظ فيها الكتب المخطوطة والمطبوعة قديمة كانت أم حديثة . وكان أجدادنا في القديم من أحرص الناس على جمع الكتب . وقد حوت بعض دور الكتب أيام العباسيين في العراق ، والأمويين في الاندلس ، والفاطميين في مصر ، مئات الألوف من المجلدات . ونيف عددها في بعض الدور على مليون كتاب بين صغير وكبير . وقد ضاع معظمها ويا للأسف في الحروب والفتن الداخلية ، وفي استيلاء المغول على العراق شرقاً ، واستيلاء الاسبان على الاندلس غرباً . ولما انتبهنا لجمع البقية الباقية منها في القرن التاسع عشر ، كان الأوربيون قد سبقونا الى جمع عدد كبير من هذه البقية ، في دور كتب باريس ولندن ، وبرلين ، واكسفورد ، وليدن ، والاسكوريال ، وكمبردج ، وغيرها . وبدلاً من أن تساعد الدولة العثمانية على تأسيس خزانات للكتب والمخطوطات العربية النفيسة في الولايات العربية ، فانها نقلت إلى إسطنبول ما تمت عليه المقاصة الى نقله من تلك الكتب والمخطوطات . ولم يحسن إلينا في هذا الصدد إلا الوالي الشهير مدحت باشا الذي أسست دار الكتب الظاهرية في دمشق في أيام ولايته .

ولت كثير من الكتب هنا وهناك في بعض الجوامع والكنائس والمدارس وعند بعض الأفراد ، كالخزانة الأحمدية ، والخزانة المارونية في حلب ، وكالخزانة الخالدية في القدس ، والخزانة الأميركية والخزانة اليسوعية في بيروت ، وخزانات المرجانية ، والطيبخانة ، وآل الكيلاني ، وآل الآلوسي ، وغيرها في بغداد ، والخزانة الصادقية في تونس وبعض الخزانات في مراكش .

أما مصر فهي أغنى البلاد العربية بدور الكتب العامة . فقد أسست فيها دار الكتب الظاهرية في القرن الماضي . وتسمى اليوم دار الكتب المصرية . وهي أعظم الدور في الشرق الأدنى . ولا يخلو جامع كبير أو تجمع أو بلدية أو مدرسة عالية من خزانة كتب كبيرة أو صغيرة كالأزهر ، والجامعة المصرية ، وكلية الطب ، وكلية الحقوق ، والمجمع العلمي المصري وبلدية الاسكندرية الخ . وأما الخزانات الخصوصية فهي في مصر كثيرة . وأشهرها الخزانة التيمورية لأحمد باشا تيمور ، والخزانة الزكية لأحمد زكي باشا . وقد نقلتا أخيراً الى دار الكتب المصرية .

ولا عجب أن تستفيد لغتنا الضادية فوائد جلى من النهضة الأخيرة في القرن التاسع عشر . فقد صنف بعض العلماء معجمات سهلة المنال اختصروا فيها المعاجم القديمة كمحيط المعلم بطرس البستاني ، وكأقرب الموارد للعلم سعيد الشرتوني . وألفت كتب مدرسية في آلات اللغة من صرف ونحو وغيرها فأزالت كثيراً من المصاعب التي يلقاها الطالب في الكتب القديمة . وزاد الاقبال على تعلم العربية في المدارس الحكومية والخصوصية في مصر ، وفي المدارس الخصوصية في ديار الشام . ونقل الى لساننا الذين عدد لا يستهان به من كتب العلوم الحديثة . وأوجدت جملة لا بأس بها من المصطلحات العربية في العلوم والمخترعات الحديثة . منها ما هو اليوم مشهور كالسيارة ، والطيارة ، والباخرة ، والقطار ، والمحرك ، والجريدة ، والمجلة وغيرها كثير . وعكف المستشرقون على مدارسة كتبنا القديمة فطبعوا منها جملة صالحة بعد ان نقحوها وحققوا بعض ألفاظها وعلقوا عليها وأضافوا اليها فهارس مختلفة . واتبع بعض علمائنا طريقتهم في طبع تراث أجدادنا العلمي والأدبي . ومصر هي اليوم السائقة في هذا المضمار . وكانت منبثة هذه النهضة الأدبية ظهور جوا كير الكتاب ، والشعراء ، كالبارودي ، والبستاني ، والشدياق ، وابراهيم المويلحي ، وعبدالله نديم المصري ، والبارودي ، ومجيب حداد وعدد كبير غيرهم ممن أعادوا إلى الانشاء العربي ديباجته المشرقة وبيانه الناصع فكانوا طليعة الكتاب والشعراء المبرزين في عصرنا الحاضر .